الشريف الأدريسى

يضع أقدم وأصح خريطة جغرافية للدنيا القديمة

للأستاذ محمد عبد الله ماضى

عضو بعثة تخليد ذكرى الامام محمد عبده بألمانيا

١ — تمهيد :

إننى إذا تحدثت عن الخريطة الأدريسية فانما أتحدث عن مجهود علمى خالد من مجهودات أحد أسلافنا الأمجاد ، عن مبرة من مبرات رجل من رجالاتنا فى التاريخ ، ويد من الأيادى البيضاء التى أسداها أحد علماء الاسلام وأبناء العرب الى العلم والعالم يوم كانوا قادة المعرفة وحملة لوائها على وجه البسيطة ، ويوم كان الشرق يملى كلمته على الغرب ويقوده الى مسالك الحياة الحق على ضوء العلم ، وفى سبيل الهدى والمعرفة . أتحدث عن أقدم خريطة عالية جغرافية صادقة عرفها التاريخ ووصلت الى أيدينا ، وأقرب صورة عرفت فى تلك العصور السالفة مطابقة لما وصل اليه العلم الحديث ولما نعلمه الآن علم اليقين ، تلك هى « خريطة الشريف الأدريسى » التى أظهر فى وضعها براعة علمية فائقة ، وخلد لنفسه بها ذكراً طيباً حسناً بين العلماء الأمجاد سوف لا يزال يضوع شذاه وينتشر عبيره مادام للعلم أهل يقدرونه ، وما دام هناك من يعرف للعلماء حقوقهم .

ولم يكن كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) إلا شرحاً لهذه الخريطة وتعليقاً عليها ، وهو كتاب ضخم يقع فى جزئين كبيرى الحجم ، وإن كثيراً من علماء البحث فى الشرق والغرب وفى مختلف العصور ، قد بحثوا بحوثاً مستفيضة فى هذا الموضوع الشائق . ولقد كان آخر من عنى بذلك من علماء البحث الجديد الأستاذ « كونراد ميللر » أحد العلماء الألمان الأجلاء فانه أخرج الخريطة فى ثوب قشيب ، وطبعها طبعة ملونة سنة ١٩٢٨ وكتب عنها الفصول الطوال ، وعقد الموازنات بينها وبين الخرائط الجغرافية القديمة والحديثة ، وأشاد بمنزلتها كأساس قوى متين ، ومرجع منظور اليه بعين التجلة والاحترام من مراجع هذا العلم وأسسه .

* * *

٢ — من هو الشريف الأدريسى ؟

الأدريسى هو الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس ينتسب الى بيت الأدارسة الذى حكم مدينة « مالقة » فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى بعد سقوط خلافة قرطبة فى بلاد الأندلس .

هذا البيت يمت بصلة القرابة الى الأسرة الأدريسية التى حكمت فى مراكش ١٣٥ سنة من ٧٩١ الى ٩٢٦ م .

وهاتان الأسرتان ترجمان معاً فى نسبهما الى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

إدريس هذا أفلت من يد العباسيين بعد اشتراكه فى ثورة العلويين عليهم فى ولاية موسى الهادى ، وفر من وجههم الى بلاد المغرب سنة ٧٨٤ م وهناك أسس مملكة الأدارسة التى ورثها أبناؤه من بعده . بعد أن بسط يده على تلك الجهة التى نزل بها ، بعضها بموالاة سكانها له ، والبعض الآخر بواسطة الحرب وبعد تحكيم السيف ، وما زال الأدارسة هناك يدبرون ويحكمون حتى غلبهم الفاطميون على أمرهم وانتزعوا الملك من يدهم . صاحبنا الأدريسى ولد سنة ١١٠٠ ببلاد المغرب فى « تطوان » على إحدى الروايات أو فى « سبته » كما فى الرواية الأخرى حيث هاجر والده وبعض أقاربه فى نهاية القرن الحادى عشر ، وأين أتم الأدريسى دراسته وتلقى دروسه ؟ لم يذكر المؤرخون ذلك . ولكن الأمر كما قال الأستاذ « ميللر » ليس بعسير ، فان القارئ لوصفه الدقيق الوافى لمدينة « قرطبة » يستطيع أن يستنبط من ذلك أنها كانت مقر دراسته وموطن تخرجه . نشأ هذا الرجل وقد حببت اليه الأسفار من صغره ، فبدأ أسفاره وهو فى السادسة عشرة ، وسافر الى البلدان الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، وتغلغل فى شمال أفريقية ، ودرس خصائص أهل هذه البلاد وعوائدهم . فوق هذا سافر الى سواحل فرنسا فى المحيط الاطلانطى ، والى سواحل انكلترا كما حدث فى بعض كتاباته . وفى نهاية الأمر دعاه رجار « روجر الثانى النورمانى » ملك صقلية الى الرحلة اليه والنزول عنده فى « بالرم » على الرحب والسعة والأقامة ببابه كأحد أفراد الحاشية معززاً موفور الكرامة . رجاه ذلك الملك الجليل فى هذا بعد أن وصل الى مسامعه من هو الأدريسى ، وبعد أن علم منزلة الأمير العلمية . قبل الأدريسى هذه الدعوة الكريمة وشد رحاله نحو صقلية ليأخذ

منزلته فى البلاط الملكى هناك ، وليحدث هذا الدوى الهائل فى الأفق العلمى الذى ما زلنا الى الآن نسمع صداه ، شجعه على قبول هذه الدعوة رغبته فى الفرار من وجه أعدائه وأعداء أسرته فى البلاد العربية الذين بالغوا فى اضطهاده وطلبه ، وسعوا جهدهم فى النكاية به . رحل الأمير الى صقلية وأقام بها مدة حياته حتى قبض الى رحمة ربه سنة ١١٦٦ م . وهكذا كان حظه حظ جده الأول أدريس . كلاهما استخلص لنفسه الحياة من مخالب الموت ، وفر من حظيرة الاضطهاد الضيقة الأنحاء الى بحبوحة الملك الواسعة الأرجاء . كلاهما شاد بجده وعزمه دولة إدريسية ، غير أن دولة جده انقضت وأخنى عليها الدهر ، ودولته هو خالدة لا تنقضى . والأمر ليس بغريب . فهذا شأن دولة العلم نصيبها الخلود والبقاء بينما تقضي دولة الملك وتفنى . رحل هذا العالم الجليل والأمير النبيل الى صقلية وقضى بقية أيامه هناك ، قضاها فى الانتاج والعمل المثمر . لم يحدد المؤرخون الوقت الذى رحل فيه الأدريسى الى صقلية تلبية لدعوة مليكها رجار «روجر الثانى» ولم يذكروا فى أى سنة كان هذا . غير أننا نستطيع أن نأخذ برأى الأستاذ « كونراد ميللر » ونستنبط ذلك من الحوادث التاريخية المرتبطة بالموضوع ، وعليه فلنا أن نفرض أن ذلك حدث قبل سنة ١١٣٨ م بقليل . فأننا نعلم أنه فى تلك السنة عقد « رجار الثانى » العزم على العمل لوضع خريطة جغرافية ووضع كتاب يشتمل على وصف أجزاء المعمورة المعروفة فى ذلك الوقت . هذا الأمر الخطير الذى لعب الأدريسى فيه دور البطل .

٣ — *صقلية فى ذلك العهد وحالة البلاط الملكى فى بالرم .*

كانت صقلية فى ذلك العهد ملتقى العقول المفكرة ، ومحط رحال العلماء يأتون اليها من كل فج عميق ، وكانت بالرم العاصمة كعبة رجال العلم يسعون اليها من الشمال والجنوب لما عرف عن مليكها رجار الثانى النورمانى من محبته للعلم وتقديره للعلماء واحترامه لهم من أى جنسية كانوا ، والى أى ملة انتسبوا . فقد كان بلاطه بحق حرم العلم ، من دخله من العلماء كان آمناً . هنا التقت الحضارة الاسلامية بالحضارة المسيحية ، وتعرف فن الشرق المسلم الى فن الغرب المسيحى فتآخيا وأخذا يعملان جنباً الى جنب إخواناً متحابين لمصلحة العلم وفى سبيل خير العالم . هناك ورث النورمانيون حضارة العرب الذين حكموا الجزيرة ٢٤٢ سنة من سنة ٨٣٠ الى ١٠٧٢ م والذين ورثوا حضارة الروم من قبل . فى ذلك الوقت كانت الحروب الصليبية قائمة على قدم وساق ، فكان هذا سبباً لوفود كثير من رجال دول أوربا ودول العالم المختلفة الى بالرم . هؤلاء الرجال الذين كان للكثير منهم شأن فى بلادهم ومعرفة بأحوالها السياسية والاجتماعية والجغرافية . كان ذلك الوقت هو العصر الذهبى للنورمانيين فى صقلية الذى عمت فيه سيادتهم جميع أنحاء الجزيرة ، والذى دخل تحت سلطانهم فى خلاله قسم من ايطاليا وشمال أفريقيا . كل هذه العوامل سهلت للأدريسى القيام بمهمته الكبيرة الشأن ، ومكنته من أن يجمع الى معارفه الخاصة وملاحظاته الشخصية التى اكتسبها بأسفاره الطويلة ورحلاته المتعددة ، وأن يضم اليها ماجعله يضع خريطته العالية ويكتب كتابه « نزهة المشتاق » عنها بوجه لم يسبق اليه ، حتى كانت هذه الخريطة وذلك الكتاب مرجع المؤلفين الجغرافيين من بعده .

٤ — *مؤلفات الأدريسى فى المدة التى قضاها فى صقلية .*

لم يقتصر عمل الأدريسى فى تلك المدة التى قضاها فى بلاط بالرم على وضع تلك الخريطة ، ولكنه ألف غير ذلك أربعة كتب (١) كتاب نزهة المشتاق أو كتاب رجار الذى سبقت الاشارة اليه ، والذى اختصر فيما بعد تحت هذا الاسم عينه ، ولقد أطلعت على نسخة من هذا المختصر فى مكتبة المعهد الشرقى بهامبورج مطبوعة بروما فى سنة ١٥٩٢ م ومكتوب على هامشها أن هذا الكتاب أول ما طبع باللغة العربية (٢) كتاب الممالك والمسالك الذى لم يصلنا منه الا بعض مقتبسات اقتبسها أبو الفدا عند كلامه على الجغرافية العربية . كذلك حدثنا عنه الشاعر ابن بشرون الأندلسى ، وحدث أن الأدريسى ألف هذا الكتاب سنة ١١٦١ لنجل رجار الثانى « فلهلم » الذى حكم من سنة ١١٥٤ الى ١١٦٦ م (٣) كتاب روض الفرج ، وهو كتاب جغرافى صغير اكتشفه أحد الباحثين من نحو ثلاثين سنة بمكتبة خاصة فى (استامبول) (٤) كتاب يبحث فى وسائل العلاج البسيطة . فوق هذا نقل الأستاذ « ميللر » عن المؤرخين أنه كان شاعراً وأنه لم يصلنا من شعره الا بعض مقطوعات ، ولكننى لم أعثر على شىء من هذه المقطوعات لأعرضه على قراء الرسالة .

٥ — *كيف فكر روجر الثانى فى وضع هذه الخريطة وكيف عهد الى الأدريسى بذلك ؟*

عنى روجر الثانى عناية خاصة بالمسائل الجغرافية وأخذ يشتغل بدراسة الكتب الجغرافية المختارة الموجودة فى ذلك العهد ، ولاسيما

العربية منها ، ولكنه لما لم يجد بعد البحث الطويل ما يطفىء غلته ويقضي به لبانته ويريح ضميره كباحث مجد . لما لم يجد جواباً واضحاً وحلاً موفقاً لما كان يجول بخاطره من المشكلات العلمية أخذ يستحضر رجال الخبرة الأجانب الذين وفدوا على مملكته من كل فج ويسألهم بواسطة المترجمين منفردين أو مجتمعين عن مواقع البلدان وحدودها ، وعن كل مايتعلق بها جغرافياً كلاً بقدر ماتصل اليه معرفته ، وقد كانوا كثيري العدد ، فان توافقت أجوبتهم ولم تتضارب أقوالهم اعتبر إجابتهم صحيحة وأعطاها قيمتها العلمية وقيدها وإلا ردها عليهم ولم يعتبرها ، وبعد أكثر من خمس عشرة سنة قضاها بلا انقطاع مع صاحبه الأدريسي في هذا العمل الخطير والبحث الشائق استقر الرأي على تقييد ماوصلوا اليه ورسمه في خريطة عالمية كاملة تبين فيها مواقع البلدان والبحار والأنهار والجبال الى غير ذلك كما وصل اليه البحث وانتهى اليه الاستقراء ، فأعطيت القوس باريها ، وعهد بهذه المهمة الكبيرة الى الشريف الأدريسي الذي رسم أصل هذه الخريطة ، ثم بعد هذا أراد الملك أن تحفر هذه الخريطة ثانية على لوح من الفضة ، فأحضر الصناع المهرة الذين أتموا هذا العمل تحت رعاية الأدريسي ورقابته ، وبعد أن جعل الملك مقدار أربعمائة ألف درهم من الفضة كما روى خليل الصفدي تحت تصرف الأدريسي لهذا الغرض اتخذ الأدريسي أقل من ثلث المقدار مائدة مستطيلة يبلغ طولها كما قدر الأستاذ «ميللر» ثلاثة أمتار ونصف متر وارتفاعها متراً ونصف متر تقريباً ، ثم حفر عليها بواسطة الصناع المهرة كما قدمنا خريطة بغاية الدقة والأتقان وتمام الموافقة لتلك الخريطة التي رسمها قبل القيام بعملية الحفر ، وكان الفراغ من هذا العمل الجليل الشأن في يناير سنة ١١٥٤ م .

وكشرح لهذه الخريطة وتعليق عليها ألف الأدريسي كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق أو كتاب رجار الذي أشرنا اليه ، وإنه لجدير بهذه التسمية بعد أن بذل هذا المليك الجليل تلك العناية الكبيرة ، وقدم هذا السبي المحمود خدمة للعلم وحباً فيه ، وقد كانت العناية بتأليف هذا الكتاب شبيهة بأختها في وضع الخريطة . فقد اختار رجار الثاني والأدريسي عدة من الرجال الذين يصح الأعتماد عليهم في مثل هذه المظائم وبعثوهم الى جهات العالم المختلفة ليدرسوا أحوال البلدان النائية ويدرسوا أهلها وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ويدرسوا حاصلات البلاد وحيواناتها وكل ماتنتجه ويعيش فيها الى غير هذا مما له أهمية جغرافيـــة وما يتعلق ببعض نواحي علم طبقات الشعوب وعلم الاجتماع . أمرهم بأن يدرسوا هذا ثم يضعوا تقريراتهم عنه ، ولقد حمل هؤلاء الرسل إذناً من الملك النورماني رجار الثاني ليحضروا معهم كل مايعدونه غريباً في بابه ذا أهمية جغرافية خاصة من الأمور الخارقة للعادة في باب الطبيعة ، وبعد أن تم ذلك وعاد أفراد تلك البعثة الاستكشافية من الجهات التي أرسلوا اليها ، وقدموا تقاريرهم اجتمع لدى الأدريسي ما مكنه من وضع كتابه نزهة المشتاق .

٦ — *كيف كانت صورة الارض في نظر الادريسي عند وضعه خريطته ؟*

ولابد لنا قبل أن نتكلم عن شرح الخريطة وبيان بنائها أن نشرح الصورة الأرضية التي كان يعتقدها الأدريسي عند وضع خريطته . كان الرأي الشائع الى أواخر العصر المتوسط أن الأرض مسطحة عائمة على وجه الماء . نعم لقد شك بعض علماء اليونان في ذلك وثار عليه أفراد آخرون بعدهم ، ولكنه لم يزل رأي الأغلبية حتى نهاية ذلك الوقت . أما رأي الأدريسي يشاركه فيه علماء الجغرافيا الأخصائيون من العرب فقد كان غير ذلك ؛ اعتقد الأدريسي أن الارض مكورة على شكل بيضة يحيط بها الماء ويتعلق بها بواسطة قوة جاذبية طبيعية ، فالماء يغمر نصفها وينحسر عن النصف الآخر مع كون هذا النصف الأخير المنحسر عنه الماء آخذاً شكلا بيضاويا منقسما بواسطة خط الاستواء الى قسمين متساويين : شمالي وجنوبي ، المعمور منها الشمالي فقط . أما الجنوبي فهو خراب غير معمور لشدة الحرارة ولعدم وجود الماء ، ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أن ابن رشد الطبيب والفيلسوف والفقيه المسلم (١١٢٦ — ١١٩٨) عارض الأدريسي في هذه النقطة ، فلقد روى عنه ابن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٨ هـ) في مقدمته [1] أنه ارتأى أن النصف الجنوبي من الكرة موافق للنصف الشمالي منها تمام الموافقة في الجو والطبيعة وأنه مأهول بالسكان مثله ، وأن النقطة القريبة من خط الاستواء سواء كان شمالا أو جنوبا شديدة الحرارة ، ثم تتدرج درجة الحرارة في الانخفاض بقدر بعد النطقة عنه . ووافق ابن خلدون ابن رشد في أصل نظريته وأيدها بما ساق من الأدلة ، إلا أنه رأى أن النصف الجنوبي لا سكان فيه كما في الشمال ، وعلل ذلك بأن معظم القسم الجنوبي الصالح للسكنى مغمور بالماء .

يتبع

محمد عبد الله ماضي

(١) المقدمة ص ٢٩ طبعة المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٢ هـ .